

«يَا بَاغِي الْخَيْرِ أَقْبِلْ» ٢٩ شَعْبَانَ ١٤٤٦ هـ

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: أَوْصِي نَفْسِي وَإِيَّاكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ ﷻ، فَهِيَ زَادُ الْمُؤْمِنِ، وَدَلِيلُ الْحَائِرِ، مَنْ تَمَسَّكَ بِهَا غَنِمَ، وَمَنْ نَأَى عَنْهَا غَرِمَ، هِيَ الْوَقَايَةُ بَيْنَ الْعَبْدِ وَبَيْنَ عَذَابِ رَبِّهِ، ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾.

عِبَادَ اللَّهِ: إِنَّ الزَّمَانَ يَدُورُ كَمَا تَدُورُ الرَّحَى، عَشِيَّةٌ تَمْضِي وَتَأْتِي بُكْرَةٌ، وَالنَّاسُ فِيهِ بَيْنَ مُقْلٍ وَمُكْثِرٍ، وَكَادِحٍ وَرَاقِدٍ، وَجَادٍّ وَهَازِلٍ، فَبَاعِ نَفْسَهُ فَمُعْتَقَهَا أَوْ مُوَبِّقَهَا.

وَالسَّعِيدُ مِنْهُمْ مَنْ عَرَفَ حَظَّهُ مِنْ مَوَاسِمِهِ فَاعْتَنَمَهَا، وَشَمَّرَ عَنْ سَاعِدِ الْجَدِّ، وَمَا فَرَطَ فِيهَا؛ فَإِنَّ فِي مَوَاسِمِ الْخَيْرَاتِ لَمَرْبَحًا وَمَغْنَمًا، وَفِي أَوْقَاتِ الْبَرَكَاتِ وَالنَّفَحَاتِ لَطَرِيقًا إِلَى اللَّهِ وَسَلَمًا، يُوفِّقُ إِلَيْهَا السَّاعُونَ الْمُجِدُّونَ، وَيُزَادُ عَنْهَا الْكُسُولُونَ الْقَعْدَةُ، وَالزَّمَنُ إِبَانٌ ذَلِكَمُ كُلُّهُ وَحِيُّ التَّقْضَى، بَطِيءُ الرُّجُوعِ، مَنْ فَرَطَ فِي لَحْظَةٍ مِنْهُ فَلَنْ يُدْرِكَهَا مَرَّةً أُخْرَى؛ لِأَنَّ مَا مَضَى فَاتَ، وَالْمُؤَمَّلُ غَيْبٌ، وَلَيْسَ لِلْمَرْءِ إِلَّا سَاعَتُهُ الَّتِي هُوَ فِيهَا، فَيَا بَاغِي الْخَيْرِ أَقْبِلْ، وَيَا بَاغِي الشَّرِّ أَقْصِرْ.

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: إِنَّ قُلُوبَ الْبَشَرِ يَعْتَرِيهَا مَا يَعْتَرِي غَيْرَهَا مِنْ عَوَامِلِ التَّأْثِيرِ؛ فَقَدْ تَصَدَّأَ كَمَا يَصْدَأُ الْحَدِيدُ، وَتَجِفُّ كَمَا يَجِفُّ الصَّرْعُ، وَتَيْبَسُ كَمَا يَيْبَسُ الزَّرْعُ، فَهِيَ أَخْوَجُ مَا تَكُونُ إِلَى مَا يُعِيدُ مَادَّةَ النَّمَاءِ إِلَيْهَا فَيَجْلِي صَدَأُهَا، وَيُدِرُّ جَفَافَهَا، وَيُنْبِتُ يَبَسَهَا، فَإِنَّ النَّفْسَ قَدْ تَلْهُو مَعَ زِحَامِ الْأَيَّامِ وَكَدَحِهَا، حَتَّى تَتْرَاكُمُ عَلَيْهَا الشَّوَاعِلُ، فَتَحْجِزْهَا عَنْ مَقُومَاتِ التَّصْفِيَةِ وَالتَّخْلِيَةِ، فَضْلًا عَنْ شَحْذِهَا وَتَحْلِيلَتِهَا.

عِبَادَ اللَّهِ: أَلَا إِنَّ الشَّهْرَ الَّذِي سَيُظِلُّكُمْ بَعْدَ سَاعَاتٍ لَهُوَ خَيْرٌ مُعِينٍ عَلَى ذَلِكَمُ كُلِّهِ، إِنَّهُ ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ﴾. إِنَّهُ شَهْرُ الْبِرِّ، وَالصَّوْمِ وَالصَّلَاةِ، وَالرَّحْمَةِ وَالتَّرَاحُمِ، شَهْرٌ لِحَاجِ الشَّهْوَةِ، وَقَصْرِ النَّفْسِ وَأَطْرِهَا عَلَى الْبِرِّ أَطْرًا، وَإِخْرَاجِهَا مِنْ دَائِرَةِ

تَوْهْمِ الْكَمَالِ الزَّائِفِ، الَّذِي يُشَكِّلُ حَاجِزًا وَهْمِيًّا آخَرَ يَحُولُ دُونَ اغْتِنَامِ الْفُرْصِ، وَانْتِشَالِ النَّفْسِ، كَذَلِكَ مِنْ كَثْرَةِ الْإِشْتَغَالِ بِمُبَاحَاتِ تَزَاحِمِ الطَّاعَاتِ، فَيَنْغَمِسُ الْمَرْءُ فِيهَا حَتَّى يَثْقُلَ، وَيَرْكَنَ إِلَيْهَا حَتَّى يَبْرُدَ، فَيَفُوتُ مِنَ الطَّاعَاتِ مَا يَجْعَلُهُ أَسِيرَ هَوَاهُ وَكَسَلِهِ وَرُكُونِهِ.

أَلَا إِنَّ هَذَا الشَّهْرَ الْمُبَارَكَ شَهْرُ الْإِسْتِزَادَةِ مِنَ التَّقْوَى، وَلَيْسَ ثَمَّةَ أَحَدٌ يَسْتَغْنِي عَنْ الْإِسْتِزَادَةِ مِنَ الطَّاعَةِ، وَالتَّفَرُّغِ لَهَا فِي شَهْرِ رَمَضَانَ.

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: لَقَدْ شَغَلْتَنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا عَنْ صَقْلِ قُلُوبِنَا وَتَخْلِيلَتِهَا، اسْتِعْدَادًا لِتَحْلِيلَتِهَا، وَإِنَّ فِي بَعْضِ الْقُلُوبِ لَقَسْوَةً، فَلْتَسْتَلْهِمْ خُلُقَ الرَّحْمَةِ مِنْ رَمَضَانَ. وَإِنَّ فِي بَعْضِ الْأَمْوَالِ لَجَفَاءً، فَلْنَتَمَسَّ لَهَا النِّمَاءَ وَالزَّكَاءَ فِي رَمَضَانَ. وَإِنَّ فِي بَعْضِ الْأَلْسُنِ لَسَلَاطَةً وَحِدَةً، فَلْنَتَمَسَّ طِيبَ الْكَلَامِ فِي رَمَضَانَ. وَإِنَّ فِي بَعْضِ الْجُسُومِ لَكَسَلًا، فَلْنَتَمَسَّ الْقُوَّةَ وَالْهِمَّةَ فِي رَمَضَانَ. إِنَّهُ شَهْرٌ مُتَكَامِلٌ يَجْمَعُ كُلَّ مُقَوِّمَاتِ التَّقْوَى لِمَنْ يَبْحَثُ عَنْهَا، ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾، فَيَا بَاغِيَ الْخَيْرِ أَقْبِلْ، وَيَا بَاغِيَ الشَّرِّ أَقْصِرْ.

إِنَّ الْمَرْءَ الْغَيُورَ لَيُؤْسِفُهُ أَشَدُّ الْأَسْفِ مَا يَرَاهُ فِي كَثِيرٍ مِنَ النَّاسِ فِي هَذَا الشَّهْرِ الْمُبَارَكَ مِنْ سُلوِكِ طَرِيقِ تَقْلِيدِيَّةٍ يَحْكُمُهَا طَبْعُ الْعَادَةِ وَالرَّتَابَةِ، لَا طَبْعُ الطَّاعَةِ وَالْعِبَادَةِ، دُونَ تَأَمُّلٍ مِنْهُمْ بِأَنَّ هَذَا الشَّهْرَ الْمُبَارَكَ شَهْرٌ تُشَدُّ النُّفُوسُ فِيهِ إِلَى رَفْعِ دَرَجَةِ الْقُرْبِ مِنْ دِينِ اللَّهِ.

يُذَكِّرُهُمْ هَذَا الشَّهْرُ بِحَقِّ اللَّهِ تَعَالَى عَلَيْهِمْ، تُشَمُّ رَائِحَةُ الْعَاطِفَةِ الْإِيمَانِيَّةِ فِي أَكْثَرِ مِنْ مَجْلِسٍ يُجْلَسُ فِيهِ، يُحَسُّ فِيهِ بِإِقْبَالِ النَّاسِ عَلَى الْعِبَادَةِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ وَقِرَاءَةِ الْقُرْآنِ، حَتَّى إِنَّهُمْ لَيَرْفَعُونَ بِذَلِكَ دَرَجَةَ الْإِسْتِعْدَادِ لِتَغْيِيرِ مَا فِي نَفْسِهِمْ، حَتَّى يُغَيِّرَ اللَّهُ مَا بِهِمْ، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾.

عِبَادَ اللَّهِ: فِي شَهْرِ رَمَضَانَ الْمُبَارَكَ تَرْتَفِعُ مَعَايِيرُ الْقُوَّةِ لَدَى الْمَرْءِ الْمُسْلِمِ؛ بِحَيْثُ يَصْعُبُ اضْطِرَابُهُ إِنْ

أَحْسَنَ الطَّاعَةِ فِيهِ، وَأَذْرَكَ سِرًّا عَظِيمًا مِنْ أَسْرَارِ هَذَا الشَّهْرِ الْمُبَارَكِ، مُتَمَثِّلًا فِي قَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: «إِذَا دَخَلَ شَهْرُ رَمَضَانَ فَتَحَتْ أَبْوَابُ الْجَنَّةِ، وَغُلِّقَتْ أَبْوَابُ النَّارِ، وَصَفَّدَتِ الشَّيَاطِينُ» رَوَاهُ الشَّيْخَانِ.

أَلَا يَا بَاغِيَ الْخَيْرِ أَقْبِلْ، وَيَا بَاغِيَ الشَّرِّ أَقْصِرْ.

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: إِنَّ الْمَرْءَ الْمُسْلِمَ بِلَا قُرْآنٍ فِي شَهْرِ رَمَضَانَ كَمَنْ يُرِيدُ حَيَاةً بِلَا مَاءٍ وَلَا هَوَاءٍ، وَإِنَّ صَلَاةَ بَعْضِ الصَّائِمِينَ بِكِتَابِ رَبِّهِمْ صَلَاةٌ رَتِيبَةٌ، لَا تَعْدُو كَوْنَهَا تَمَتُّمَاتٍ يَهْدُونُ بِهَا آيَاتِ الْقُرْآنِ هَذَا، لَا يَذُرُونَ مَا قَرَأُوا، وَلَا يَفْهَمُونَ مَا تَلَوْا، هُمْ أَحَدِهِمْ آخِرُ السُّورَةِ، فَيَقَعُ فِي عِلَلٍ مَنْ عَابَهُمُ اللَّهُ بِقَوْلِهِ: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِي وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾، أَيْ: لَا يَعْلَمُونَهُ إِلَّا تِلَاوَةً لَا تُجَاوِزُ تَرَاقِيَهُمْ، فَلَرَبَّمَا تَفَنَّنُوا فِيهِ بِاللَّحْنِ، وَتَشَدَّقُوا بِالنُّطْقِ، فَالْهَاهُمْ هَذَا وَذَاكَ عَنْ سُهُولَةِ الْقِرَاءَةِ، وَحُسْنِ التَّدْبِيرِ. نَقَلَ الْإِمَامُ ابْنُ الْجَزَرِيِّ فِي كِتَابِهِ «النَّشْرُ فِي الْقِرَاءَاتِ الْعَشْرِ» عَنِ الْحَافِظِ أَبِي عَمْرٍو الدَّانِي - أَحَدِ أَيْمَةِ الْقِرَاءَاتِ وَالتَّفْسِيرِ فِي الْقَرْنِ الرَّابِعِ - رَحِمَهُ اللَّهُ: فَلَيْسَ التَّجْوِيدُ بِتَمْضِيعِ اللِّسَانِ، وَلَا بِتَقْعِيرِ الْفَمِّ، وَلَا بِتَعْوِيجِ الْفَكِّ، وَلَا بِتَرْعِيدِ الصَّوْتِ، وَلَا بِتَمْطِيطِ الشَّدِّ، وَلَا بِتَقْطِيعِ الْمَدِّ، وَلَا بِتَطْنِينِ الْغُنَاتِ، وَلَا بِحَضْرَمَةِ الرَّاءَاتِ، قِرَاءَةٌ تَنْفَرُ عَنْهَا الطَّبَاعُ، وَتَمُجِّهَا الْقُلُوبُ وَالْأَسْمَاعُ، بَلِ الْقِرَاءَةُ السَّهْلَةُ الْعَذْبَةُ الْحُلُوهُ اللَّطِيفَةُ، الَّتِي لَا مَضْغَ فِيهَا وَلَا لَوْكَ، وَلَا تَعْسْفَ وَلَا تَكْلَفَ، وَلَا تَصْنَعَ وَلَا تَنْطَعُ.

عِبَادَ اللَّهِ: أَلَا إِنَّ شَهْرَ رَمَضَانَ لَفُرْصَةٌ كُبْرَى فِي أَنْ يُطَهَّرَ الْمَرْءُ نَفْسَهُ، بِالصَّوْمِ فِي النَّهَارِ حَتَّى تَنْتَهِيَ لِتَدْبِيرِ آيَاتِ الْقُرْآنِ فِي اللَّيْلِ، فَإِنَّ سَاعَاتِ اللَّيْلِ أَجْمَعُ عَلَى التَّلَاوَةِ؛ لِأَنَّ الصَّوْمَ بِالنَّهَارِ تَخْلِيَةٌ، وَالْقِيَامَ بِالْقُرْآنِ فِي اللَّيْلِ تَحْلِيَةٌ، وَاللَّهُ جَلَّ وَعَلَا يَقُولُ: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾.

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: اعْلَمُوا أَنَّ هَذَا الشَّهْرَ الْمُبَارَكَ يَحْمِلُ فِي طَيَّاتِهِ مَعْنَى الْجُودِ وَالْإِنْفَاقِ وَالشَّفَقَةِ، هُوَ شَهْرُ النُّفُوسِ السَّخِيَّةِ، وَالْأَكْفِ النَّدِيَّةِ، شَهْرٌ يَشْرَبُ فِيهِ الْمُنْكُوبُونَ إِلَى أَيْدِي ذَوِي الْيَسَارِ وَالْجِدَةِ.

فَلْيَكُنْ لِلْمَرْءِ فِي ذَلِكَ سَهْمٌ رَاجِحٌ، وَلَا يَتَرَدَّدَنَّ لِحُظَّةٍ وَاحِدَةٍ فِي كَفْكَفَةِ دُمُوعِ الْمُعْوزِينَ وَالْيَتَامَى

وَالْأَرَامِلِ، مِنْ أَهْلِ بَلَدِهِ وَمُجْتَمَعِهِ، وَلَا يَشْحَنَ عَنْ سَدِّ مَسْغَبَتِهِمْ، وَتَجْفِيفِ فَاقَتِهِمْ.

وَحَذَارِ حَذَارٍ مِنَ الْبُخْلِ وَالْإِقْتَارِ؛ فَإِنَّهُمَا مَعَرَّةٌ مَكْشُوفَةُ السَّوْءِ، نَاهِيكُمُ عَنْ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَدْ اسْتَعَاذَ بِرَبِّهِ مِنْهُمَا، وَهُوَ مَنْ كَانَ أَجُودَ النَّاسِ، وَأَجُودُ مَا يَكُونُ فِي رَمَضَانَ حَتَّى يَكُونَ كَالرَّيْحِ الْمُرْسَلَةِ.

ثُمَّ إِنَّ هَذَا التَّحْضِيضَ غَيْرُ قَاصِرٍ عَلَى ذَوِي الْمَسْكَنَةِ وَحَسْبُ؛ بَلْ إِنَّهُ لَيَرْتَدُّ أَمَانُهُ وَبِشَارَتُهُ إِلَى الْبَاذِلِينَ أَنْفُسَهُمْ، فَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَثَلُ الْبَخِيلِ وَالْمُنْفِقِ كَمَثَلِ رَجُلَيْنِ عَلَيْهِمَا جُبَّتَانِ مِنْ حَدِيدٍ، مِنْ ثُدْيِهِمَا إِلَى تَرَاقِيهِمَا، فَأَمَّا الْمُنْفِقُ فَلَا يُنْفِقُ إِلَّا سَبَعَتْ عَلَى جِلْدِهِ، حَتَّى تُخْفِيَ بَنَانَهُ، وَتَعْفُو أَثَرَهُ، وَأَمَّا الْبَخِيلُ فَلَا يُرِيدُ أَنْ يُنْفِقَ شَيْئًا إِلَّا لَزِقَتْ كُلُّ حَلَقَةٍ مَكَانَهَا، فَهُوَ يُوَسَّعُهَا وَلَا تَتَّسِعُ»؛ رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ.

وَالْمَعْنَى: أَنَّ ذَا الْجُودِ وَالسَّخَاءِ إِذَا هَمَّ بِالصَّدَقَةِ انْشَرَحَ لَهَا صَدْرُهُ، وَطَابَتْ بِهَا نَفْسُهُ، وَتَأَقَّتْ إِلَى الْمُثُوبَةِ، فَتَوَسَّعَ فِي الْإِنْفَاقِ، وَلَا يَضِيرُهُ الْحَدِيدُ، بَلْ هُوَ يَتَّسِعُ مَعَهُ حَيْثُمَا اتَّسَعَ، بَيْنَ أَنَّ الْبَخِيلَ الْقَتُورَ إِذَا حَدَّثَ نَفْسَهُ بِالصَّدَقَةِ جَبُنَ عَنْهَا، وَضَاقَ صَدْرُهُ، وَانْقَبَضَتْ يَدَاهُ، وَأَحْسَسَ كَأَنَّمَا يُنْفِقُ مِنْ عُمُرِهِ وَفُؤَادِهِ، حَتَّى يَعِيشَ فِي أَنَانِيَّةٍ ضَيِّقَةٍ لَا يَرَى فِيهَا إِلَّا نَفْسَهُ، غَيْرَ مُكْتَرِثٍ بِذَوِي الْحَاجَةِ وَالْفَاقَةِ، وَإِنَّ هَذَا وَأَمْثَالَهُ قَدْ وَضَعُوا الْإِضْرَ وَالْأَغْلَالَ فِي أَيْدِيهِمْ، وَجَعَلُوهَا مَغْلُولَةً إِلَى أَعْنَاقِهِمْ، وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذَا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا﴾.

أَلَا إِنَّهُ لَيْسَ شَيْءٌ أَشَدَّ عَلَى الشَّيْطَانِ، وَأَبْطَلَ لِكَيْدِهِ، وَأَذْهَرَ لَوْسُواسِهِ مِنْ صَدَقَةٍ طَيِّبَةٍ، يُعْلِنُ بِهَا الْبَاذِلُ انْتِبَارَهُ عَلَى هَوَاهُ، وَعَلَى الشَّيْطَانِ فِي تَخْوِيفِهِ، وَمَا يَعِدُ بِهَا الْعِبَادَ مِنَ الْفَقْرِ، ﴿وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾، ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾. فَذَلِكُمْ وَعْدُ الشَّيْطَانِ، وَهَذَا وَعْدُ اللَّهِ، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾.

فَيَا بَاغِيَ الْخَيْرِ أَقْبِلْ وَيَا بَاغِيَ الشَّرِّ أَقْصِرْ.